

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمة ... واللغة الأم

الدكتور: عودة خليل أبو عودة

مجمع اللغة العربية الأردني

لقد أصبح من الحقائق الثابتة، أو المسلمات المقررة أن الأمة-أي امه من الأمم-لا يكون لها كيان تعرف به، أو حدود تعرف بها، إلا بكيان لغتها وحدودها العلمية والنفسية والاجتماعية والدينية والتراثية، إلى غير ذلك من الروابط التي تنشأ بين الناس. وقد كانت اللغة العربية تملأ الآفاق في العصر الجاهلي، بما يتواصلون ويتناشدون ويتفاخرون ويتنافرون، وينتجون في كل ذلك أدبا رفيعا لم تعرف الإنسانية مثله حتى الآن.

ونزل القرآن الكريم فأنتهى العصر الجاهلي. وتوفر المسلمون والناس جميعا على هذا الكتاب الكريم، يقرؤونه، ويتدبرون آياته، ويحللون لغته، ويتأملون في أسرار تراكيبه، فإذا به بيان لغوي سحر الناس، واعجزهم أن يأتوا بمثله، بعد أن تحداهم أن يفعلوا ذلك، وكان الانطباع الغامر الذي شغل الناس بعد أن يستمعوا إلى آيات القرآن يدفع قائلهم لأن يهتف: والله ما هذا بكلام بشر. وآخر أن يقول: لقد سمعت أنفا كلاما والله أن أسفله لمغدق وأن أعلاه لمثمر وأنه يعلو ولا يعلو عليه. وآخر يتحرك قلبه ويهتز وجد أنه، ويسال عن محمد -صلي الله عليه وسلم- أين هو؟ فيأتيه بقلب منيب ويقول له: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

وكان أكثر الذي أثار الناس، وأقنعهم بأن هذا كلام الله، أنه نزل بلغتهم، بحروف لغتهم، وأصواتها، ألم، الر، حم، ص، ق، طس، طسم ... بل نزل بالأساليب التي كانوا يتباهون بها، ويتفاخرون، وعرفوا في شعرهم الإيقاع المؤثر، والتقسيم الجميل، والقوافي الرائعة، فجاءهم بمثل ذلك وأكثر من الإيقاع والفواصل والتراكيب اللغوية العجيبة التي وافقت في كثير منها، ما عرفوه بعد ذلك بتفعيلات الشعر وأوزانه. وهذا لا يعني أنه ورد في القرآن شعر-حاش الله-، بل أن أوزان الشعر وبحوره لم تكن قد عرفت بعد، ولكن الله عز وجل أنزل القرآن الكريم بأساليب القول عندهم، فإذا كانوا يطربون لأقوالهم وأشعارهم التي عرفوا فيما بعد أنها تسير على أوزان محددة، فإن هذا القرآن فيه من الألفاظ والتراكيب ما يثير إيقاعا محببا إلى النفس، ولكنه يتجاوز هذا الإيقاع إلى الربط المحكم بين القول والمعنى مما لا يأتيه الباطل على مر القرون، مهما اتسع المكان وامتد الزمان.

عرفت الأمة العربية الإسلامية بعد ذلك بلغتها، وانتشرت في الأقطار شرقا وغربا، وتكلم بها أهل البلدان التي أنتشر فيها الإسلام، ولم نعلم حتى الآن أن أي لغة كانت في خراسان وما بين النهرين والهند شرقا، أو في شمال إفريقيا والأندلس وأوروبا غربا، قد كان لها ذكر قبل الفتح أو بعده؛ ذلك أن الأمة القوية تفرض لغتها، واللغة القوية تصنع أمتها العزيزة القوية، وهذه هي المعادلة الخالدة، اللغة تصنع الأمة، وتكون لسانها في العلوم والآداب والفنون، ويتعلمها الناس ويدخلون فيها بكل ما عندهم من فكر وعلم وأدب، وهكذا دخلت الأمم كلها في الإسلام، وتشكلت الدول الإسلامية القوية، واتسع العلم والمعرفة وصنعت اللغة العربية حضارة إسلامية عربية سامقة، امتدت قرونا طويلة حتى استيقظت أوروبا من سباتها العميق في بدايات القرن الثامن عشر، فصارت تحارب الأمة العربية، وتبعدها عن لغتها، وتكيد لها الكيد المتين في الدعوات الهدامة الكثيرة، التي ليس لها هدف إلا القضاء على هذه اللغة، التي بها عزت أمتها وانتشرت.

فإذا أردنا أن نعود إلى سابق مجد امتنا وعزتها، ونصنع حضارتنا من جديد، أو نتفاعل مع الحضارة الإنسانية، فلا بد أن نعيد المجد والاحترام للغتنا، وأن ننشئ أبنائنا على حب لغتهم وعلى الاعتقاد أن لغتهم الأم هي السبيل إلى قوتهم ومجدهم وعزتهم، ونضرب لهم أمثله باحترام أمم الأرض للغاتهم، وعدم التفريط بها. وفي سبيل عودتنا إلى لغتنا يجب أن نضع الخطط والأساليب التي تعين على ذلك، واهمها أن يكون كل فرد مؤمنا بأهمية اللغة في بناء مجد الأمة وعزتها، وأن تبني المناهج السليمة وأن تتعاون أجهزة الدولة كلها على الالتزام بالعربية والحرص عليها، وأن تنتشر في حياتنا بكل وسائل الإعلام والاتصال والمعرفة صورة اللغة العربية المشرفة، وهذا واجب على كل مواطن؛ فاللغة بحاجة إلى حملة وطنية واسعة، تسهم فيها كل مؤسسة بدورها في سبيل إعادة المجد والحياة إلى اللغة العربية، لغة الحضارة الإسلامية الواسعة، لغة العلم والمعرفة على مر القرون.

* * * *